مظاهر الهوية الشعرية الملتبسة

في عصر صدر الإسلام

أ.د. جاسم الخالدي

طالب سلمان عبيد المالكي

جامعة البصرة / كلية التربية / القرنة

Manifestations of ambiguous poetic identity in the era of early Islam

Professor Dr. Jassim Al-Khalidi

Talib Salman Obaid Al-Maliki

Basra University - College of Education / Qurna

ملخص البحث

تسعى هذه الدراسة الموسومة بـــ(مظاهر الهوية الشعرية الملتبسة في عصر صدر الإسلام)، لمعاينة الهوية الشعرية وعلاقتها بالنقد من جهة، وبالتحوّلات السوسيولوجية للحقبة التي شهدت مجيء الإسلام من جهة أخرى، والتي أفرزت بدورها هوية شعرية مختلفة عما سبقها في العصر الجاهلي، وقد شابها الانحراف والالتباس وعدم الوضوح، انطلاقا من الرؤية النسقية التي تتحكم بميول الشعراء ومن ثم تفرز لديهم هويات ملتبسة عن هويتهم الإسلامية التي ألزموا أنفسهم بها.

Abstract

This study, entitled with «manifestations of the ambiguous poetic identity of the islamic age», seeks to examine poetic identity and its relationship to criticism on the one hand, and the sociological transformations of the era that witnessed the advent of Islam on the other hand, which in turn produced a different poetic identity than that in the Islamic era, which was marred by deviation, confusion and lack of clarity, based on the systemic vision that controls the tendencies of poets. Then, it produces ambiguous identities for them about their Islamic identity, to which they committed themselves to.

مدخل.

لم تتمكن الهوية، بوصّفها معبرا تعريفيا من فض الشراكة بين وظيفة الأدب وذات الشاعر ونزعاته الخاصة، بمعنى آخر، أن الشاعر ليس إلّا صوتا لتسكين الهويات المتنازعة، ولا يلبث أن يلجأ إلى اشتراطات الشعر الجمالية بوصفها مادة أدبية تستلزم الفني قبل الإعلامي،وهنايتمظهرالصراع واضحا بين طبيعة الأدب ومشكل الانتماء، فلا انتماء محض في الأدب، وتبقى الهوية مأسورة داخل الإطار النسقي الذي يعدّ الضابط الوحيد لتشكلّاتها، ونحن بذلك لا نريد أن نبرأ الأدب من صناعة الهوية والتدليل عليها، بل نريد الفصل بين نوعين من الهويات، الهوية الإنسانية بمعزل عن نزعاتها الدالّة، والهوية الشعرية التي لا يمكن مسكها إلّا عبر القول الشعري، وهنا لا بد من حضور الجانب الثقافي كلاعب رئيس في ملابسات تلك الهويات والكشف عن غموضها وعدم وضوحها، فالهوية ((لا تنشأ دفعة واحدة لدى الفرد، وهي دائما غير متكاملة بل تتبع مطبات وصدمات الحياة، وهي قائمة في الحركات التاريخية والثقافية للفرد))[1]، ويبدو أن الهوية الشعرية الإسلامية متوافرة على الشروط التي تدفع بالهوية للتشكّل والظهور من حيث ارتباطها بالشعر، فقد مرّ الشعر بالتحولّات السوسيولوجية التي يحتاجها الشعر، بل الظرف الذي يحتاجه للانتقال والتحوّل والمضي نحو صيغ وأوجه مختلفة، وإلى جانب هذه المسوغات الكفيلة بإعلان التحوّل القيمي والفني، يتدخل الآخر بوصفه الطرف الرئيس في معادلة الهوية، ((فكل حديث عن الهوية يستحضر عن قصد

أو عن غير قصد مسألة الاختلاف، ويتناسل حديث الهوية والاختلاف إلى ثنائيات متقابلة مثل الآخر والأنا))[٢]، ولا اختلاف أبيّن وأعقد من الاختلاف الذي صاحب مجيء الرسالة المحمدية، فأفرز تنافرات والتباسات حادة، ولا أدلّ على ذلك من الحروب التي صاحبت هذا التحوّل ومن ثم الفتن والتقادحات التي لم تلبث موجودة إلى يومنا هذا.

إن سؤال الثقافة لا يمكنه أن يتجاوز الهوية؛ لارتباطها بكينونة الإنسان ومحيطه، غير أن سؤال النسق الثقافي يتخطّى هذه العلاقة، ليتدخل في مكانتها وأسبابها، وطبيعة التوافق بينهما، ويرصد تحولاّتها، لينتقل من المعيار البديهي (الظاهري) إلى المعيار الأخلاقي والآخر البراغماتي الذي توفره الهوية، والخطاب القرآني كان واعيا للسؤال النسقي، حين صنف الشعراء ومواقفهم واستثنى منهم من هو داخل الإطار الايديولوجي (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم ترَ أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) (سورة الشعراء ٢٢٧)، والواضح أن الخطاب القرآني هنا يستهدف الهوية الشعرية، بل يتبنى السؤال النسقي، من خلال ربطه بالقول، والحقيقة أن أبرز ما يميّز الهوية مهما اعتل مفهومها هو اللغة؛ لكونها الظاهرة الأبرز للكشف عنها، واللغة هي المهيمّن الأكثر حضورا للظواهر بمختلف انسراباتها، و((عناصر الهوية تتمحوّر كلها عبر اللغة))[٣]،وكيف لا وهي المنفذ الذي دخل به الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) لإثبات نبوته، والعمل على نشر

رسالته، بأن جعل القرآن معجزته التي تحدى بها بلاغة العرب وفصاحتهم، وما كان منهم ألا أن اتهموه بالشعر الذي هو امتيازهم وعلامتهم الفارقة، واللغة بذلك تمتلك من الحساسية ما يجعلها مظهرا حركيا قابلا للتأول وعدم الثبات، وهي بذلك تفاقم أمر الهوية وتجعله مادة ملتبسة، فلا غنى لنا إلّا باللجوء إلى سؤال النسق من أجل الكشف عن الهويات الملتبسة وبيان أحوالها.

إن الميول والانتماء والمظاهر السياسية والمجتمعية والعقدية بمجموعها، تمثّل الأسس والملامح الرئيسة لتشكّل الهوية الشعرية الملتبسة، وقد تدخل بشكل مباشر في الكشف عن طبيعة ذلك الالتباس، غير أن هناك مظاهر قيمية أخرى تتدخل في طبيعة هذا الالتباس والكشف عنه، وهو ما يمكن أن نصطلح عليه بالمظاهر الحاكمة للشعر، وهذه المظاهر جاءت مع الدين الإسلامي وصاحبت موقفه من الشعر والشعراء، وهي بطبيعة الحال مؤثرة بالشكل الذي يجعلها معيارا للهويات الملتبسة؛ لما تحمل في طيّاتها من قيود والتزامات، وهي بمقام العوامل الخارجية التي تسهّم في رسم الطريق الخاص للشعراء مفترقة مع الشعر وأحواله ووظائفه العامة، ويمكننا أن نلخص هذه العوامل بما يأتي:

أولا: موقف الإسلام من الشعر والشعراء.

من نافلة القول إن الإسلام تعامل مع الشعر بوصفه عملا، تجري عليه وصاية التضاد التقليدية (خير، شر)، مثله في ذلك مثل سائر الأعمال، بل لم يتدخل الإسلام بطبيعة هذا

العمل فنيا، ولم ينظر إليه بخصوصياته الفارقة على أنه مظهر مجازي له ما له وعليه ما عليه، ما خلا أن الأحداث التاريخية بأسبقيتها المفترضة أثرّت بشكل (نقدي) على طبيعة العمل الشعري وأفرزت أشكالا متعلّقة ببنيته الفنية، ولم تكن هذه التغيّرات من التزامات الشريعة الإسلامية، بل كانت جراء ما يستلزمه العصر والحالة المعاشة، كالحروب والمجابهة والدفاع والتجيير، حتى أن الخطاب القرآني لم يستهدف الشعر لذاته، بل ذكر الشعراء لنفي هذه التهمة عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لإثبات نبوته وإحقاق رسالته، ((فكان لابد أن ينظر للشعر من ناحية ارتباطه وعلاقته بالدين، سواء من ناحية تمثيل المبادئ الإسلامية والدعوة لها والسعي في سبيلها، أما من ناحية معارضة تلك المبادئ ومعاداتها، فالشعر هنا مرتبط بالإسلام وبالأحداث التاريخية الكبرى التي أثرّت فيه))[٤]، ومردود ذلك أن موقف الإسلام لم يكن فنيا محضّا، بل كان مرتبطا بمفصل تحقق الشريعة الإسلامية وتثبيتها، وهذا من شأنه أن يخلق هوية ملتبسة لأمرين، الأول: متعلّق بالشعراء الذي أخذوا على عاتقهم التصدي للمشركين ونقل القيم الإسلامية وتمثّلها، وهذا من شأنه أن يجعل الشاعر متفرغا من قيده الفني والإبداعي، والثاني: خاص بالشعراء الذين عاشوا هذه الحقبة ودخلوا الإسلام ولم يكونوا متصدين للمعركة الكلامية أو حتى المعركة الفعلية، فكلا الفئتين ستكونان تحت طائلة الالتباس، فالأُول سيكونون محاكمين بالنسق ومظاهره، والآخرون سيكونون خارج التصنيف الهوياتي داخلين بالمحاكمة

النسقية نفسها، وفي هذا السياق يذهب أدونيس إلى تصنيف شعراء هذه المرحلة إلى فريقين، الأول هو الفريق المحافظ على القيم السائدة التي أقرها الإسلام، والثاني الفريق المتمرد على هذه القيم والخارج عليها، وهو يسوق مثالا على تشجيع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والخلفاء الراشدين للفريق الأول ومعاقبة الفريق الثاني أو تحييد نصوصهم[٥]، فلا غرابة أن نجد بعض الباحثين يخرجون بعض الشعراء المخضرمين من لائحة الشعراء الإسلاميين، رغم أنهم أدركوا الإسلام وأعلنوا إسلامهم؛ لكون المعيار لم يكن في الزمن وحسب، بل في استلهام القيم الإسلامية (ظاهرا أو باطنا)، فاستبعدوا بذلك على سبيل التمثيل لا الحصر: لبيدا والخنساء والحطيئة؛ لكونهم لم يكونوا ضمن الفريق الداخل بالمعركة الكلامية في خضم تثبيت دعوة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)، ونحن بذلك لا نناقش موقف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أو الخلفاء الراشدين، فهو موقف واضح مستمد من التعاليم الإلهية في حدود زمنية حرجة، بل الموقف النقدي العام إزاء هذه الفئة من الشعراء، فقد خرج الموقف الإسلامي من الشعر من العمل المجرد إلى السياسة وفرض الأيديولوجيا، فالشعر ((لم يكن إلا شكلا من أشكال العمل السياسي، وهو وسيلة لخدمة المبدأ يبشر به ويدعو له، وهو بذلك وسيلة جماعية لا فردية، وهو كلام كغيره من الكلام وليس له امتياز بذاته، وإنما يحسن إذا عبّر عن فكرة حسنة، ويقبح إذا عبّر عن فكرة قبيحة))[٦]، وما يعضد ذلك، عدم الاحتكام لما هو فني وقيمي في

النصوص، وربما هذا ما دفع الشاعر الإسلامي من الفئة (أ) من أن يهمل الجانب الجمالي ويشرع بما يقيّض له من القول دفاعا وتبشيرا ووعيدا، وربما هذا ما يؤسس لنظرية ضعف الشعر فيما بعد التي سنقف عندها، فضلا عن الأسباب الجوهرية الأخرى المصاحبة لهذا السبب.

إذن يتخلص موقف الإسلام – الذي هو موقف القرآن الكريم والرسول الأكرم والخلفاء الراشدين– من الشعر على أنه عمل وحسب، معيار قبوله وتقبله يكمن في مجاراته للشريعة الإسلامية، فنفي الشاعرية الذي جاء في الخطاب القرآني، هو لإثبات نبوة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، في أنه مرسل من قبل الله عزّ وجلّ، وليس بشاعر أو كاهن، ولا بساحر أو مجنون، وهو تأكيد على نفي الصفات جميعها، إلّا النبوة والرسالة والوحي[٧]، أما الموقف من الشعراء فلقد كان فيه لبس واضح من المنظور الثقافي؛ لأن هناك فرقا بين الموقف من النص وصاحب النص، والآية الكريمة التي خاطبت الشعراء ((والشعراء يتّبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)) (سورة الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧)، والواضح أن الآية الشريفة تتحدث عن السلوك وليس عن طبيعة النصوص، وأنها نزلت في الشعراء المشركين، (عبد الله بن أبي وهب، ومسامع بن عبد مناف وأبي عزة الجمحي، وأمية بن أبي الصلت)[٨]، فإذا كان الشعراء المشركون هم المعنيون بالآية على وفق سلوكهم،

فماذا عن الشاعر المسلم وسلوكه؟ هل يمكن غض النظر عن السلوك إزاء نصرة الإسلام بالنص ؟ وهل تصح المعادلة إذا تمّ عكسها؟ هل يمكن أن نعتد بسلوك الشاعر الذي لم يشترك بالدفاع عن الإسلام ومبادئه؟، فالموقف المرحلي من الشعر لم ينظر إلى الشعراء بكليّة نتاجهم وبسلوكهم، بل بالنصوص التي انتصروا بها للإسلام، إذ إن الشعر قبل فتح يختلف كثيرا عما قبله، بل حتى الإرشادات المتعلّقة به اختلفت بعد أن دخل الكثير من المشركين الإسلام[٩]، بمعنى أن الهوية الشعرية كانت مرحلية، وأن النظرة للشعر متعلّقة بما هو سياسي وأيديولوجي، وحين انتفت الحاجة الرئيسة رجعت القيود المفروضة على الشعر من هجاء وقذف طالما انتفى السبب المتعلّق بالكفر، غير أن الدارسين في تصنيفهم للهويات الشعرية لا يؤشرون على البعد النسقي لنصوص الشعراء، مستبعدين السلوك إزاء مظهر الدفاع عن الإسلام، ملزمين من لم يشتركوا بهذه الحملة به، وهذه هي الهوية الملتبسة التي تؤمن ببعض السلوك وببعض النصوص ومخرجاتها وتكفر ببعض، على أن الهوية ((ليست مجرد الوعي، وإنما هي أيضا اللاوعي، ليست المعلن وحده، وإنما هي كذلك المكبوت))[١٠]، وبذلك يكون الموقف من الشعر والشعراء، هو موقف ملتبس بطبيعة الحال، وأفرز هويات ملتبسة كثيرة، وأتاح للدارسين تصنيف الهويات على ما كان ظاهرا، مستبعدين الجوهر الرئيس للقيم الإسلامية كالنية والوعي والعقل، بل خرجوا عن نواميس نظرية الأدب في تقبلها للنصوص ومعاينتها والتدليل

على قيمها الإبداعية.

ثانيا _ الخطاب القرآني وأثره.

لقد أحدث القرآن الكريم بخطابه المغاير، وتركيبه المطلق ولفظه الخلّاق، هزة مدوّية في الوسط البلاغي العربي، المعروف بفصاحته وتفنّنه بالقول وطرائقه وكيفياته، فلم يكن من العرب إلا أن ينصتوا أيما انصات لسحر هذا القول الذي عجزوا عن تصنيفه، إذ لم يكن من المظاهر القولية التي ألفوها وأحسنوا فيها الصنعة، كلام ليس من الشعر وليس من النثر، ولا يشبه سوى نفسه من ضروب القول وأنماطه، وبعيدا عن المصاديق العلمية والمعرفية التي يتمتّع بها القرآن الكريم، شكّل مجيؤه إعجازا ملحوظا إزاء مجاراته أو الوقوف على كنهه، وكيف لا وهو كلام الله عزّ وجلّ ومعجزة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ مثّل مرتكزا صلبا للدعوة الإسلامية ولصدق ما جاء به الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم))، متحديا به فصاحة العرب ومراسهم في القول والخيال والخلق المجازي، وقد أحدث هذا القول المتفرّد إحراجا قيميا لا يقاوم في أوساط الجزيرة العربية، فشهد له الكافر قبل المؤمن بكماله واتساقه بمعناه ومبناه، وكان مردّ ذلك أن العرب يتمتعون بتلق خاص؛ لكونهم معروفين بفنون القول وإمكان تجييره، ((والعرب قوم ذو ألسن، وذوق قولي ممتاز، فلم يلبثوا أن أخذهم القرآن بجماله، كما أخذتهم بالدهشة تلك الشريعة الكاملة، المبرأة من النقائص التي كانت تصيب الشرائع الأخرى، فشغلوا بالقرآن، وسكت الشعراء ليستمعوا إلى كلمة الله))[11]، ولعل الشعراء من أوائل

الفئات التي أنصتت لسحر القرآن واستجابت لقواه الجمالية الأخّاذة، وهم بالوقت نفسه، الفئة الأكثر تحفظا على ما جاء في تعاليمه؛ لكونها دفعتهم على الالتزام والتقيد بالقول، وألزمتهم سلوكيات الشريعة الإسلامية التي قال بها القرآن وجاء بها النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وربما كان هذا السبب كافيا لجعل القرآن الكريم عاملا من عوامل التباس الهوية الشعرية في حقبة صدر الإسلام وما تلاها، إذ إن سبب القرب والاستجابة والتمثّل خرج لقضايا جمالية وأخرى عقدية، وسبب البعد هو الاشتراطات السلوكية والأخلاقية التي فرضت إطارا خاصا على الشعر والشعراء، فاصطدم الجانب الجمالي بالجانب الفني لديهم، فكانوا هم الأول حضورا وتمثّلا وتأثرا، والأول نفورا وتقيدا وتبرّما، ولعل الأمثلة على المظهرين كثيرة، وضعت الكثير من الشعراء في اختبار التحفظ والإذعان مقابل الزامات الشريعة الإسلامية ونواميس القرآن الكريم، وهذا ما دفعهم للتخلّي عن اللحظة الفنية التي يحتاجها الشعر في بنيته المضطردة وقيمته المنتظرة في قبالة تطبيق هديه وتعاليمه، فلجأوا بذلك إلى ظاهرة الالتزام، بما يعنيه هذا المفهوم من تبنٍّ ودفاع للمنظومة السياسية، أو عبر التحفظ والابتعاد عما ينافي التعاليم الدينية الجديدة، فهو جعل الأدب وسيلة لخدمة معينّة عن الإنسان وقضاياه لا لمجرد التسلية، كأن يكون غرضها المتعة والجمال[١٢]، إذ إن التباس الهوية بين الالتزام لصالح الدين والسياسة مقابل عدم الالتزام لصالح الجمالي والفني، لم يشمل الشعراء جميعهم في تلك الحقبة، بل

خصّت أولئك الشعراء الذين تصدوا بشعرهم للقضية الإسلامية من دون الشعراء الآخرين، وإن كانوا قد أعلنوا إسلامهم، والالتزام حصل لدى الشعراء ((الذين اتصلوا اتصالا وثيقا ممتدا بالصراع بين المسلمين والمشركين، من أهل مكة وغيرهم من العرب، سواء منهم من كان في جانب الإسلام ومن كان منهم في الجانب الآخر؛ ذلك لأن هؤلاء الشعراء قد واجهوا منذ البداية – وبخاصة المسلمين منهم – عبء الاتصال المباشر بالقيم الجديدة وما تحمله من مظاهر التغيير في الأخلاق والسلوك والقيم الاجتماعية والروحية))[١٣]، في حين ظلّ الرعيل الآخر من الشعراء المسلمين على انفتاحهم الشعري، أي مزجوا بين تأثرهم بالقرآن الكريم وبين سلوكهم وطبيعة نصوصهم، ولعل هذا جانب من جوانب التباس الهوية يبدو على قدر من الوضوح، في حين أن هناك قدرا لم يكن واضحا كفاية متمثّلا بالفئة الأولى من الشعراء التي ألزمت نفسها بالتأثر شعرا وسلوكا، في حين يمكننا أن نتلمس عكس ذلك في نصوصهم، حتى النصوص التي كانت مجيرة لنصرة الدين الإسلامي كما ألمحنا في موضع سابق، وكأن الخطاب القرآني كان قد ألزمهم بتعاليم الدين الحنيف على حسب المتغيّرات السياسية، فما كان يستلزم قدحا وهجاءً وتعريضا بالمشركين فهذا من هدي الدين ويعد جهادا، وما خرج منه في إطار فني وجمالي، فيعد منافيا لتعاليم الدين، بمعنى آخر أن الهجاء على سبيل التمثيل، يعد مباحا في الحرب، أو لنقل جهادا إن كان ضد المشركين، في حين أنه يعد منافيا للخلق الإسلامي في أوقات

السلم، أو إن كان ضد المسلمين، في حين أن الفعل واحد وأرضيته مجيّرة، فلو تأملنا الأخبار التي ينقلها الدارسون بهذا الخصوص لوجدناها منافية لخلق الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وللتعاليم القرآنية، ومن ذلك ما تورده الدكتورة إخلاص فخري في كتابها (الإسلام والشعر) في معرض حديثها عن موقف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)) من الشعر والشعراء بالأقوال والأفعال: ((بعد هجرة الرسول الكريم للمدينة المنورة، اشتد هجاء الشعراء المشركين... للرسول والمسلمين، فقال عليه السلام للأنصار: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم، فقال حسان أنا لها يا رسول الله، قال الرسول الكريم كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين، فيقول له الرسول اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم اهجهم وجبريل معك))[١٤]، وفي موضع آخر تورد الدكتورة عمارة ((يقول جابر بن سمرة جالست النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت فربما تبسّم معهم))[١٥]، ونحن - بالنظر لقيم الإسلام العالية، وخطاب القرآن الكريم الذي جمع غاية اللطف والسماحة، وأخلاق الرسول الأكرم الذي ذكره ربّ العزة قائلا (وإنك لعلى خلق عظيم) (سورة القلم: ٤) وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[١٦]، وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (أدبني ربي فأحسن

تأديبي)[١٧] – نتحفظ على ما ينقل من أخبار وأحاديث بهذا الخصوص، فلا يناسب شخصية الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، أن ينتقص من أعراض الآخرين وأنسابهم حتى لو كانوا مشركين، والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يتناقض في القول، فقد كان موقفه من الشعر واضحا، ولا يمكن له أن ينتصر بما أتهم به بعد تنزيه القرآن الكريم له، ولا ينبغي له (صلى الله عليه وآله وسلم) أن ينتقص من الآخرين وأن يبغي عليهم إلا بالحق، والحق كان واضحا مبيّنا من قبل الله عزّ وجلّ، بالجهاد في سبيله على وفق مواقف معينّة مذكورة ومحفوظة، ونحن ندّعي أن ما ورد في كتب الدارسين ضرب من المغالاة والتهويل والوضع، لا يتناسب مع هدي القرآن ولا مع خلق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، أن ما ورد لا يقتصر على ما ذكرته الدكتورة عمارة، بل موجود في أغلب كتب الدارسين المختصين، بخاصة وأنهم قد نقلوها عن كتب الحديث والسيّر، ولا مراء أن الكثير من الأحاديث التي وردت عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) موضوعة أو ضعيفة[١٨]، ومن الجدير بالذكر القول إن أغلب الذي هجاهم الشعراء المسلمون من المشركين، قد أسلموا فيما بعد وصاروا صحابة ورواة حديث، أمثال ابن الزبعرى وأبي سفيان بن الحارث، وكأن دائرة الأدب الإسلامي قائمة على مجموعة من الشعراء المسلمين هجوا مجموعة من الشعراء المشركين أصبحوا فيما بعد مسلمين بل صحابة ورواة حديث وحفظة قرآن، في الفترة بين الهجرة النبوية الشريفة وفتح مكة، ((التف حول الرسول الكريم جماعة

من الشعراء المؤمنين... ومن الأولين الصحابة الأجلاء رواة الحديث: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وعدي بن حاتم الطائي، وعباس بن مرداس السلمي، وأبو سفيان بن الحارث))[١٩]، فعدو الأمس هو صديق اليوم، والحقيقة أن الحال هذا يذكرنا بقضية المعلقات ونفي أن تكون التسمية من جراء تعليق هذه النصوص على أستار الكعبة؛ لما فيها من قدح وتفاخر بين قبائل العرب، فكيف يمكن لمن أسلموا فيما بعد من محو ما تعرضوا له من إساءة بالعرض والنسب؟، ولنا في قول الشاعر عزاء للإجابة:

جراحات السيوف لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسانُ[٢٠]

على أننا لا ننفي أهمية الشعر في الدفاع عن الإسلام ونصرته، ولكنا نستبعد أن يكون الأمر قد وصل حدّ التعريض والنيل من الأنساب والأعراض وبتوصية من الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم).

وبالرغم من هذا فإن أثر القرآن الكريم يعدّ جوهريا في شعر صدر الإسلام، بدءا من أثره العام في توحيد اللهجات وإغناء المعجم العربي وتهذيب ألفاظه، مرورا بالقيم التي حملها فصارت تمثّل مركزا جماليا وقيميا يعتد به داخل المنظومة الثقافية العربية، الأمر الذي دعا الشعراء إلى استلهام هذه القيم وتوظيفها داخل نصوصهم، ولعل هذا الأثر يمتد إلى يومنا الحاضر، فما زال الشعراء يضعون الخطاب القرآني نصب أعينهم وينهلون منه ما أفاض من معان وصور وأساليب خاصة، ومن صور تمثّل آيات القرآن الكريم وبيان أثره في شعر المسلمين،

قول عبد الله بن رواحة:

شهدنا بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا[٢١]

وقول صرمة بن أبي أنس الأنصاري:

ونعلم أن الله لا شيء غيره وأن كتاب الله أصبح هاديا[٢٢]

وقول عبدة الطبيب:

أوصيكم بتقى الإله فإنه يعطي الرغائب من يشاء ويمنعُ

وبر والدكم وطاعة أمره إن الأبر من البنين الأطوعُ

واعصوا الذي يزجي النمائم بينكم متنصحا ذاك السمام المنقع[٢٣]

وقول الحصين بن الحمام:

أعوذ بربي من المخزيا ت يوم ترى النفس أعمالها

وخفت الموازين بالكافرين وزلزت الأرض زلزالها[٢٤]

والواضح أن هؤلاء الشعراء وغيرهم الكثير، قد تأثروا بالقرآن الكريم، لغة وأسلوبا ومضمونا، واستقوا من تعاليمه وقيمه، مقتبسين ومتناصصين وآياته الكريمة بمختلف انعكاساتها المعنوية دالّة، والمفصل الجوهري الذي نحن بصدده، ليس بالتأثر الأسلوبي والمعنوي وحسب، بل بالتأثر الذي يعكس هوية شعرية إسلامية حقة، ومن هنا تبدو مظاهر الهوية الشعرية الملتبسة، من خلال صورة التأثر النصي وحقيقة الشاعر وسيرته، ففي المقابل هناك شعراء تأثروا بقيم القرآن الكريم ظاهرا من خلال سيرهم وطبيعة إسلامهم، أو كما يعبر عنهم الدكتور شوقي ضيف بمن رق إسلامه[٢٥]، ونذكر منهم على سبيل التمثيل: عبد بني الحسحاس، والنجاشي قيس بن عمرو، والحطيئة، وابن مقبل، الذي يقول فيه ابن سلام

((كان جافيا في الدين، وكان في الإسلام يبكي أهل الجاهلية))[٢٦]، وإلى جانب هؤلاء ممّن رقّ إسلامهم وضعف، طائفة من الشعراء دخلوا الإسلام متأخرين بعد معاداتهم الواضحة ومناوئتهم، وممّن وقفوا على الحياد وأعلنوا تحفظهم، إذ يقسمهم الدكتور يحيى الجبوري إلى فئات ثلاث:

١. شعراء المعارضة، وهم ثمانية عشر شاعرا.

٢. الشعراء المتأثرين بالإسلام، وهم خمسة شعراء.

٣. الشعراء الذين في شعرهم لمحات إسلامية، وهم ثمانية شعراء[٢٧].

وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نتلمس الهوية الشعرية الملتبسة من خلال أثر القرآن الكريم في هذه المرحلة، وتمثّل الشعراء بفئاتهم المختلفة لآيات القرآن الكريم، التي لا تدلّل على صحة إسلامهم واستقامته، لمجرد أنهم تعالقوا مع الآيات القرآنية وقاموا بتوظيفها، يقول ابن الزبعرى:

وعليك من أثر المليك علامة نور أضاء وخاتم مختوم

عفت العداوة وانقضت أسبابها ودعت أواصر بيننا وحلوم[٢٨]

ويقول ضرار بن الخطاب:

فإن تظفروا في يوم بدر فإنما بأحمد أمسى جدكم وهو ظاهر

وبالنفر الأخيار هم أولياؤه يحامون في اللأواء والموت حاضر[٢٩]

وضرار بن الخطاب كان معروفا بتعصبه لقريش، حتى أنه بعد إسلامه قال لأبي بكر: ((نحن كنا لقريش خيرا منكم، أدخلناهم الجنة وأوردتموهم النار))[٣٠]، وهذا إنما يدلّل أن إعلان الدخول بالإسلام لا يمنح الشاعر هوية شعرية إسلامية، بل تبقى

العصبيات والثارات قارة في النفوس، والقول لوحده ليس كافيا لتحقق هوية شعرية واضحة، ومن الشعراء الذين يعدون من ملتبسي الهوية، عباس بن مرداس السلمي، إذ يقول:

فآمنت بالله الذي أنا عبده وخالفت من أمسى يريد المحالكا

ووجهت وجهي نحو مكة قاصدا وتابعت بين الأخشبين المباركا

نبي أتانا بعد عيسى ناطقا من الحق فيه الفصل منه كذلكا

أمينا على الفرقان أول شافع وآخر مبعوث يجيب الملائكا[٣١]

ومنهم الحطيئة الذي يقول:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيدُ

وتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للأتقى مزيدُ

وما لابد أن يأتي قريب ولكن الذي يمضي بعيدُ[٣٢]

وهكذا يبقى عامل القرآن الكريم وأثره في الشعراء، عينا على انزياح الهوية الشعرية وانحرافها، ودليلا على التباسها، عبر مطابقة سيّر الشعراء وبالنظر إلى مواقفهم وتاريخ إسلامهم، إذ يعني التأثر بأساليب القرآن الكريم وتمثّل معانيه، إن الشاعر اكتسب هوية شعرية إسلامية واضحة المعالم، بل تتدخل جملة من العوامل في تبيان صحة هذه الهوية، ولعل القرآن وأثره، امتد من الوهلة الأولى لنزوله، وظلّ ملازما للشعراء في مواقفهم وتصديهم، غير أن المنظور الثقافي لطبيعة هذا التعالق الأسلوبي أو المعنوي، جعلت الهوية الشعرية الإسلامية على المحّك، بالنسبة لمن تباينت مواقفهم وتأخر إسلامهم، ورقّ إيمانهم، بل حتى بالنسبة لمن

تقدمت مواقفهم الايجابية في صدر الإسلام، واتخذوا موقفا متعادلا وحياديا، طالهم الالتباس واللغط، وسيبقى هذا الالتباس مثار التذبذب وعدم السكون والاستقرار، ما دام المحرك لهذه الهويات قائما على المظهر السياسي والآخر العقدي.

ثالثا – نظرية ضعف الشعر.

تعدّ قضية ضعف الشعر في عصر صدر الإسلام، من أهم القضايا اللافتة والأكثر حضورا وجدلا بين الدارسين، وإنما يطلق عليها نظرية؛ لكثرة اللغط الذي حصل عليها، وتعدد الآراء المستندة إلى المصداق النقدي، والحقيقة أن الآراء النقدية بخصوص الظواهر الأدبية لا يحتكم فيها إلى الذوق أو التعصّب والميول، ولعل توصيف الضعف متأت من المعايرة والمفاضلة بين عصر صدر الإسلام والعصر الذي قبله (الجاهلي)، الذي ينماز بالمكانة الشعرية العالية ولا مراء في ذلك أو افتراق بين العامة والخاصة، ونحن لا نرى توصيف الضعف الملازم للعصر الإسلامي توصيفا معيبا؛ لأمرين: أولهما: إن أسباب الضعف كثيرة، كان أبرزها الخطاب القرآني وما يتمتّع به من مكانة بلاغية وأسلوبية عالية، فانصرف العرب عن الشعر وانشغلوا بأمر الدين الإسلامي الذي غيّر النظم العقدية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية لديهم، والثاني: يكمن في أن الأمر ليس شخصيا أو فرديا، بمعنى أنه غير موجّه لشاعر ما بعينه عن سواه، رغم أن هناك تجارب فردية أو لنقل نصوصا عكست قيمة جمالية فائقة، وقبل أن نخوض بأسباب ذلك الضعف أو بالآراء المختلفة التي انقسمت بين مؤيد ورافض، نوّد أن

نشير إلى مخرجات ضعف الشعر في عصر صدر الإسلام وعلاقته بالهوية الشعرية الملتبسة، فالقول بالضعف يعني عدم وضوح الهوية الشعرية بالأساس، والقول بعدمه، يؤكد وجود هوية ملتبسة لم تستوعب التحوّل الذي حصل وانشغلت ببنائها الفني الخاص الذي درجت عليه في الحقبة السابقة، وهذا يعني أن قسما من الشعراء لم يهتموا لأمر الإسلام وتعاليمه، أو لنقل أنهم لزموا الحياد واتخذوا مجازا خاصا بهم، بمعزل عن الأحداث الجسيمة التي وقعت فلحقت التغيير بمرافق الحياة كافة، وفي سياق حديثنا عن مركزية التحوّل المتعلّق بمجيء الإسلام، يلفت أدونيس نظرنا إلى قضية مهمة تبيّن أهمية هذا التحوّل بل قيمته وهيمنته، وهو يتحدث عن ثقافة الاتباع والابتداع، ويخلص أن الثقافة الإسلامية هي ثقافة اتباعية، أي أنها تتبع أمر الله عزّ وجلّ والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)،: ((الجاهلية تتقدّم الإسلام ظاهريا، لكن الإسلام يتقدّمها جوهريا، ومن هنا لا نعرف الإسلام بالجاهلية، وإنما نعرف الجاهلية بالإسلام، فالإسلام هو الأصل الذي يعرف به، وفي ضوئه كل شيء كان قبله، وكل شيء يجيء بدءا منه))[٣٣]، بمعنى أن كل شيء بما في ذلك الشعر – الذي نحن بصدده – يجب أن يكون أصله إسلاميا؛ لكون الإسلام يمثّل مشيئة الله وإرادته وكلمته الحقة، ومن هنا يمكننا أن نتلمس اللغط الحاصل في فهم الشعر لدى جمهور الدارسين، بل وعلينا أن ندرك الافتراق بين نظرية الأدب وبين المنظور الإسلامي الذي ينافيها بالرأي والمضمون في أن تكون هي الأخرى اتباعية في ما تراه، وبذلك

تكون الآراء المتنازعة حول قضية ضعف الشعر، إما إتباعية أو ذوقية أو نقدية محض، وعلى وفق المنظور الأول، لا يعدّ الضعف ضعفا فنيا، بل مستوى جديدا من وجهة نظر الدين الإسلامي؛ لكون المعيار فيه مرهونا بما يريده الدين الإسلامي من سلوك قويم ((ليس الأدب إذن استنادً إلى ما تقدّم، ممارسة لغوية ينتج عنها خلق أشكال تعبيرية متنوعّة، وإنما سلوك))[٣٤]، أما المنظوران الآخران فنستند إزاءهما بالمصداق العلمي والمعرفي والجمالي، ولعل الأسباب التي تدعونا كدارسين لمعاينة ضعف الشعر في هذه المرحلة، نعزوها أولا لتحوّل الأدب إلى سلوك أو عمل من اشتراطاته أن يكون صالحا، ومن ثم تأتي الأسباب المعروفة تباعا، كانشغال العرب بتثبيت الدين الإسلامي والدفاع عنه، والدهشة التي أصابتهم بنزول القرآن الكريم، الذي يعدّ خطابا جماليا خاصا تفرد ببنيته ومعجمه وأساليبه، ((ضعف الشعر في صدر الإسلام نظرية صحيحة، ثم أن تشبيه مشركي قريش النبي بالشاعر، ورفع القرآن نفسه عن هذا المعنى، جعل الناس ينظرون إلى الشعر على أنه تقليد جاهلي... وساعد على إضعاف الشعر أيضا، إن أعداء الإسلام كانوا يحاربونه بالشعر، فلما عمّ الإسلام كانت كراهة هذا الشعر قوية في نفوسهم، فتناسوه وامتنعوا عن رواية ما كان منه))[٣٥]، وقد انقسم الدارسون على وفق ذلك، إلى فئتين، ذهب الفريق الأول بصحة نظرية الضعف، وخالف الفريق الثاني ذلك، وفيما يأتي حصر للآراء التي أوردوها:

أ – مؤيدو نظرية ضعف الشعر: من المتقدمين الذين ذهبوا هذا المذهب،

هو ابن سلام الجمحي، الذي عقد السبب بالجهاد والتصدي لأعداء الإسلام، ((فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر))[٣٦]، ويبدو أن رأي ابن سلام هذا، يثير بعض التساؤلات، فإذا كان العرب قد انشغلوا عن رواية الشعر بالجهاد فماذا عن الشعر الذي قيل أبان العهد الأول للدعوة الإسلامية؟ والتساؤل نفسه لرأي البهبيتي، فإما أن تكون الحرب الكلامية (الشعرية) مفتعّلة، أو أنها لم يعتدا بما قيل في خضمها، والأمر الآخر الذي يثير التساؤل في رأي ابن سلام، أنه فصل بين الفتوح الإسلامية وغزو فارس والروم، بل قدّم الغزوات على الفتوح، وكلاهما جاء بالعهد الراشدي وما تلاه، جاعلا السبب الرئيس في الانشغال بالحروب، وليس لموقف الإسلام من الشعر، ومن الآراء التي تثير الجدل وتدخل في معرض التناقض، رأي ابن خلدون، فقد ذهب إلى أن سبب الضعف يكمن بانشغال العرب بالوحي والدين والنبوة، وأنهم سكتوا لفترة عن قول الشعر، وأن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يحرم الشعر بل أثاب عليه، فرجعوا بعد ذاك لقوله[٣٧]، والمعروف أن الرجوع للشعر بصورته المعهودة جاء في عهد بني أمية، فهل كان العرب منشغلين بأمور الدين لقرن من الزمان؟ ومادام الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يحرمه فكيف يصنف ابن خلدون ما قيل في صدر الإسلام؟ والغريب أن الرجل يعود لينفي رأيه الأول بتفضيل

الشعراء الإسلاميين على الجاهليين فنيا: ((فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق... أرفع طبقة في البلاغة بكثير من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد... والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والسنة))[٣٨]، والحمد لله أن الرجل لم يذكر امرأ القيس، فهكذا رأي يلقى على علاته، ويعد رأيا ذوقيا متسرعا؛ لكون البلاغة ليست العنصر الوحيد في صحة الشعر وإقامته، كما أنه رأي مخالف حتى لرأي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد أثنى على طرفة وعنترة، والمثير للغرابة أن الرأي قائم على ما نهى عنه القرآن والسنة، فأغلبية من ذكر ابن خلدون كان شعرهم ممّا يتحفظ عليه بالقرآن والسنة، فكيف امتازوا بتأثرهم بهما؟ وكأن ابن خلدون لا علم له بمحاذير البلاغة، فقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قاله: ((إن الله يبغض البليغ من الرجال))[٣٩]، وهو يعني وضع البلاغة في غير موضعها ومخالفتها للحق، وحتى فيما يتعلّق بحديث (إن من البيان لسحرا)، فيدلّ على أن البيان يمكنه أن يحوّل الحق باطلا والباطل حقا[٤٠]، فالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يستهدف البلاغة أو البيان لذاته، بل لمخرجاتهما وسبب مواضعتهما، وبلا شك فإن اعتداد ابن خلدون بجملة ما اعتد من الشعراء المسلمين كانوا ضمن هذه الحدود والإطار.

ومن الدارسين المتأخرين الذي رأوا بضعف الشعر في عصر صدر الإسلام، الدكتور مصطفى الشكعة،

بقوله ((لعله من نافلة القول أن نعترف بأن الشعر قد خبت جذوته، وتوارت بلاغته في إبان البعثة النبوية وخلالها، لقد توارى الشعر وتحامى إنشاده الشعراء))[٤١]، ومثله جرجي زيدان الذي لم يختلف بالسبب عن أقرانه: ((إن الشعر في عصر الراشدين توقف؛ لانشغال المسلمين عنه بالفتوح))[٤٢]، وبذلك تكون الأسباب التي دعّت هؤلاء الدارسين للبت في ضعف الشعر، جاءت متقاربة، ولم تخرج عن الانشغال بالحروب وبالدين الجديد.

ب- رافضو نظرية ضعف الشعر:

وفي مقابل آراء الدارسين الذين ذهبوا إلى ضعف الشعر في تلك الحقبة، هناك فريق آخر من الدراسين رأوا ببطلان هذه النظرية، وأن هذه الحقبة كانت زاخرة بالشعر ومتنوعّة، وهم كثر قياسا بالفريق الأول، ولهم مصاديقهم وأسبابهم، ومنهم الدكتور سامي مكي العاني الذي ناقش الآراء جميعها، وخلص إلى رأيه الذي يرى ببطلان هذه النظرية: ((وممّا سبق نخلص إلى بطلان دعوى ضعف الشعر الإسلامي، ونؤكد أن ما استند إليه القائلون بهذه الدعوى يرجع إلى قلة اطلاعهم على النصوص الشعرية، أو إلى تقليد مقولة الأقدمين أو تحميل بعض نصوص القرآن والحديث أو النقاد القدامى أكثر ممّا تحتمل وتوجيهها إلى غير ما أريد منها))[٤٣]، ورأي الدكتور العاني يحمل شيئا من التعصب والاتهام، فإذا كان الدراسون المحدثون لم يطلعوا كفاية على الشعر الإسلامي، فما بال المتقدمين ليركنوا إلى هذا الرأي؟ والحق أن الأمر لا يحتاج للشدّ والجذب؛ لكون طبيعة الأدب بنسختها الفنية ببساطة، تنافي

تحفظات الشريعة الإسلامية، وكانت الانتقاله من العصر الجاهلي، عصر الانفتاح والحرية المطلقة، انتقاله حادة ومنعطفا ضيقا بمكان ليجعل الشعراء سائرين على إيقاع واحد وبالمستوى نفسه، وفي السياق نفسه، يرى الدكتور عبد القادر القط أن الضعف الذي طال الشعر، لم يكن في حقبة صدر الإسلام، بل بالفترة التي سبقت مجيء الإسلام[٤٤]، والدكتور القط هنا لم يرد المصادقة على ضعف الشعر، وإنما أراد مناسبة العهد الإسلامي لطبيعة النصوص التي قيلت فيه وظهرت أبانه، ولا يعلّل ذلك بالضعف، بل يعطي للعصر خصوصيته، مشيرا إلى أن الضعف حقيقة قد وقع في نهاية العصر الجاهلي، ومن الآراء التي تدلّل على التباس الهوية في هذا الخصوص، رأي الدكتور شوقي ضيف المخالف بشدة لمذهب الضعف، وقد اعتد على غنا العصر شعريا وفنيا بظهور شعراء مغمورين بقوله: ((ومن الظلم للإسلام أن يقال إنه كفّ العرب عن الشعر، ووقف نشاطه، فقد كان ينشد على كل لسان، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله... فإذا بنا نجد مكة التي لن تعرف في الجاهلية بشعر كثير... يكثر شعراؤها))[٤٥]، وهذا يدلّل على أن الكثير من الشعراء قد اكتسبّوا صفة شعرية إسلامية وهم لم يكونوا معروفين، أو لنقل لم يكونوا بأهمية الشعراء الذين شكلوا حضورا، وهذا الظهور المفاجئ بسبب الأحداث وتغيّرها بالمردودات السياسية والعقدية والسوسيولوجية، إنما يدلّل على إضفاء هوية عابرة وغير قارة، كما أنه يدلّل على الضعف بالوقت نفسه، فالشاعر المغمور بطبيعة الحال لن

يشكّل فارقا يذكر.

ومهما يكن من شيء، فإن الآراء بتغايرها واختلافها، بصحتها وعدمها، لا تقدح بالعصر الإسلامي ومكانته الأدبية، بل ولا يمكن التعاطي مع الأمر على أنه أمر شخصي متعلّق بانتماء الدارسين وميولهم، والمقارنة أو المفاضلة إذا صحت، فإنما تصح انطلاقا من طبيعة الظرف والحقبة المعاشة وتغيّراتها، لا بالمقارنة بشكل فردي بين الشعراء، وينبغي القول إن الشعر الإسلامي يتمتّع بخصوصية ثقافية، وأنه يمتلك معاييره ومقاييسه الفنية الخاصة، وما يهمنا في هذا المفصل والسياق، هو التأشير على الهوية الشعرية الملتبسة، وهي الهوية التي قام الشعراء بصناعتها أنفسهم مرة، ومرة تكفّل الظرف بإنتاجها وتحديد ملامحها، ولا انفكاك من القول إن الأسباب التي دعّت الشعراء إلى التحفّظ أو الابتعاد عن الشعر، هي ظروف واقعية وحقيقية، ولا يمكن أن نغفل في الوقت نفسه الشعراء الذين اختبروا الحقبتين (المخضرمين)، فقد تباينت مواقفهم ومستوياتهم بشكل ملحوظ، فعلى الصعيد الفني ضعف شعر حسان بن ثابت مقارنته بشعره في الجاهلية، وعلى الصعيد العقدي لم يكن كعب بن زهير حاضرا بنسخته الإسلامية، ومثله الخنساء ولبيد، أما الحطيئة فقد كان موقفه معروفا، وكان من أبرز ملتبسي الهوية في عصر صدر الإسلام، أما فيما يتعلّق بالشعراء الذين أعلنوا إسلامهم بعد فتح مكة، فهم من ملتبسي الهوية وظلّ حضورهم صوريا على الصعيد الشعري.

إن علاقة التباس الهوية الشعرية بضعف الشعر تبررها الجودة والكمية،

ويكفلها الحضور، كما أن قاعدة الشعر الفنية لا تسري على محور أو ثيمة أو موضوعة واحدة على الدوام، والقول بضعف الشعر في الهوية الإسلامية ينبغي أن يقابله قوة في الشعر لهوية الآخر، وهذا الأمر نسبي في النهاية ولا يمكن حسمه؛ لكونه يجري على نحو فرداني ومتفرّق، وعلى هذا النحو يمكننا أن نجمل مظاهر التباس الهوية الشعرية على وفق العوامل الثلاثة (موقف الإسلام من الشعر، أثر القرآن الكريم في الشعر، نظرية ضعف الشعر) بما يأتي:

١. المظهر العقدي: إن الشريعة الإسلامية تنظر إلى الشعر بوصفه سلوكا مرتبطا بالذات البشرية، وليس عملا فنيا مجردا، ولهذا تخلّى الكثير من الشعراء الإسلاميين عن الكثير من مضامين الشعر وصنوفه وأغراضه، وابتعدوا عن موطن الشبهة والدخول فيما لا يرضي الله ونبيه الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، فكان أن صار الشعر عملا إتباعيا لا إبداعيا في حدوده الموضوعية المصوغ من أجلها للدفاع عن العقيدة وتثبيتها، كما أن الكثير من الشعراء المنضوين في الإسلام فقدوا هذه الهوية؛ بسبب انفتاحهم، أو وقوفهم على الحياد، أو بسبب تذبذب مواقفهم وخوضهم بالموضوعات الجمالية الأخرى التي أفقدتهم عامل الهوية والحضور.

٢. المظهر الإعلامي: أفرز الجانب الإعلامي المتعلّق باستلهام القيم الإسلامية وتضمينها ونشرها، الكثير من الشعراء المغمورين أو غير المهمين، لمجرد أن أنهم وظفوا بعضا من الأساليب القرآنية والهدي الإسلامي من خلال أحاديث الرسول الأكرم

(صلى الله عليه وآله وسلم)، الأمر الذي أكسبهم هوية إسلامية وأدخلهم مدخل الدين الإسلامي، شأنهم في ذلك شأن الشعراء الذين قضوا حياتهم في الدفاع عن الدين قلبا وقالبا، فأعداء الأمس من الشعراء المشركين دخلوا هذا الإطار بعد إسلامهم واكتسبوا هوية شعرية طوت لهم ماضيهم المناوئ ضد الدين الإسلامي .

٣. المظهر النسقي: ينبغي التفريق في النظر إلى الهوية الشعرية، بين ذات الشاعر وقوله، فلا ضابط لهذا الأمر سوى الظاهر من انضواء الشاعر تحت خيمة الإسلام، فهناك ممّن هم صادقون في انتمائهم واكتسبوا سمعة مغايرة عن الذين خاضوا الميول بشكل ظاهري، ولعل الأسباب كثيرة في هذا الجانب، قد تكون سياسية أو قبلية أو اقتصادية.

الخاتمة

من خلال تتبعنا ومعاينتنا للعوامل المساهمة في التباس الهوية الشعرية في عصر صدر الإسلام، توصلنا إلى النتائج الآتية:

١. إن الحديث عن الهوية الشعرية الإسلامية، هو حديث عن الحياة الإسلامية بمختلف انسراباتها وتوجهاتها وتحوّلاتها على الصعد كافة، ومن البديهي أن تتحوّل النظرة إلى الشعر، باختلاف الحياة الجديدة، التي جاءت منادية بخلاص الإنسان والحفاظ على قيمته وكرامته والفوز برضّا الله سبحانه وتعالى من خلال اتباع هدي الإسلام، وهذا هو التحوّل الأول الذي شهده الشاعر الإسلامي، بتحوله من الجاهلية الفنية والأخرى المعاشة، إلى النسخة الإسلامية على صعيدي الحياة والرؤيا الفنية للشعر.

٢. تعتمد الهوية الشعرية بالدرجة الأساس، على الهوية الإنسانية وطبيعة ميولها وتوجهاتها، والشعر على وفق هذا المبدأ، يتجّه الاتجاه الذي تحكمه الظروف، ومن ثم الذي يتدخل فيه الميل والهوى إلى جهة من دون أخرى، وانطلاقا من هذا التصوّر، فإن التباس الهوية أمر يكاد يكون بديهيا وحاصلا لتعلّقه بالذات الشاعرة.

٣. ترتبط الهوية الشعرية الملتبسة، بعوامل عدة، تكون واعزة ومحركة لها، كالأيديولوجيا والقبلية والعنصرية، بخاصة وأن الشاعر الإسلامي على وفق محيطه، يقف إزاء هذه المظاهر التي تعدّ جوهرية في الحياة العربية الأولى.

٤. يعدّ موقف الإسلام من الشعر والشعراء، عاملا مهما في التباس الهوية الشعرية في عصر صدر الإسلام؛ لكونه قد تعاطى مع الشعر بوصفه عملا، والعمل بطبيعة الحال يبقى رهن السلوك، وقائما على المتغيّرات الدائمة، والحاكم الأبرز في التباس الهوية الشعرية، يكمن في تخليص الشعر من مظاهره التي لا توافق المبدأ الإسلامي، فظلّت الهوية الإسلامية رهن الإعلامي والإشهاري وحسب، في الكثير من صورها المتمثلّة بأسماء شعرية معروفة، كحسان بن ثابت وكعب بن زهير وعبدة بن الطبيب والحطيئة وضرار بن الخطاب وعبد بني الحسحاس وغيرهم، بمعنى آخر، أن نصوص هؤلاء الشعراء، فيها الكثير من الالتباس إزاء ما هو إسلامي ومحافظ داخل النص الواحد.

٤. كان للقرآن الكريم، أثر كبير في اللغة بشكل عام، وبالشعراء وأساليبهم بشكل خاص، وهو بلا شك عين على التباس الهوية وشاهد عليها؛ لأن تمثّل

القيم الإسلامية عبر ما جاء في القرآن الكريم، لا بد أن لا يكون ظاهريا، وعلى النصوص الشعرية أن تلتزم بمحاذير الدين الإسلامي، لا أن تؤمن ببعضها وتكفر بالبعض الآخر، من خلال مضامين النصوص الشعرية، التي استلهمت القيم الإسلامية وزاغت عن هدي الدين، عبر الغزل وذكر الخمرة وغيرها من المحاذير.

٥. أثّر مجيء الدين الجديد على بنية النص الإسلامي، فقد تحوّلت النظرة إلى الشعر، وصار سلاحا لمجابهة المشركين والدفاع عن الإسلام، فشرع الشعراء باللجوء إلى المقطعات بدلا من النصوص الطوال؛ لقضايا تخصّ قوة التأثير واكتساب الوقت، وللأسباب نفسها، ضعف الشعر في هذه الفترة، فالتبست هوية الكثير من الشعراء المجيدين في الجاهلية، وضعف شعرهم، فسكت الكثير منهم، وبرز بعضهم، لكن بنسخة شعرية مغايرة؛ من أجل الدفاع عن الإسلام بوصفّه مرحلة مفترضة.

٦. يتعلّق التباس الهوية، بجملة من القضايا الجوهرية، وهي التي تحدد الهويات وأنماطها، كالعامل العقدي الذي أفرز التباسا واضحا في الهوية الشعرية، بخاصة لدى الشعراء الذين تأخر إسلامهم، أو الشعراء الذين كانوا يسيرون مع الركب لمجاراة الراهن الحياتي، والعوامل السوسيولوجية الأخرى، كالعامل الاجتماعي والاقتصادي، والتي يمكن جمعها كلها، تحت إطار النسق الثقافي المضمر، الذي تتمحور حوله قضية التباس الهوية الشعرية بشكل رئيس.

الهوامش:

١- الاختلاف والمغايرة، أزمة الهوية، أبو شعيب السماوري، مج رواية، مؤسسة سطور للثقافة، بغداد، ع: ٢، ت/ ١٤: ٢٠١٧، ٢.

٢- الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي، سعيدة بن بوزة، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط/ ١، ٢٠١٦: ٢٩.

٣- مدارات الحداثة، محمد سبيلا، الشركة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط/ ١، ٢٠٠٩: ١٥٥.

٤- شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، يحيى الجبوري، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط/ ١، ١٩٦٤: ٨-٩.

٥- ينظر: الثابت والمتحوّل - بحث في الإبداع والاتباع عند العرب، أدونيس، ج/ ١ الأصول، دار الساقي، دمشق، ط/ ٧، ١٩٩٤: ٢٥٨.

٦- المرجع نفسه: ٢٥٨.

٧- ينظر: الإسلام والشعر - دراسة موضوعية، د. إخلاص فخري عمارة، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ط، د.ت: ١٦.

٨- ينظر: تفسير الكشّاف لأبي القاسم الزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، ج/ ٢، مكتبة العبيكان، الرياض، ط/ ١، ١٩٩٨: ٤٤٠.

٩- ينظر: الإسلام والشعر، د. فايز ترحيني، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط/ ١، ١٩٩٠: ٨٧.

١٠- الثابت والمتحوّل: ٢٧.

١١- تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، نجيب محمد البهبيتي، مطبعة دار الكتب القاهرة، د.ط، ١٩٥٠: ١١٣.

١٢- ينظر: معجم مصطلحات

الأدب، مجدي وهبة، مطبعة دار القلم، بيروت، ط/ ١، ١٩٧٤: ٧٩.

١٣- في الشعر الإسلامي والأموي، د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية، بيروت،ط/ ١، ١٩٨٧: ١٢.

١٤- الإسلام والشعر، د. إخلاص فخري عمارة: ٤٢.

١٥- المرجع نفسه: ٤٣.

١٦- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج/ ٦٨، منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، ط/ ١، ١٣٦٤ هـ: ٢٨٢

١٧- المرجع نفسه: ٢٨٢.

١٨- ينظر: كل من: شوقي ضيف، يحيى الجبوري، عبد القادر القط، وآخرين.

١٩- الإسلام والشعر، د. إخلاص فخري عمارة: ٥٩.

٢٠- ينسب البيت للمتنبي ولا وجود له في ديوانه، وينسب ليعقوب الحمدوني، ينظر: https: / /al-maktaba.org / book/ ٣١٨٦٩/ ٢٥١٧٦

٢١- ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره، د. وليد قصاب، دار العلوم، دمشق، ط/ ١، ١٩٨١: ٩٢.

٢٢- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر القرطبي، تحقيق: علي معوض، عادل أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١، ٢٠١٠: ٣٣٤.

٢٣- شعر عبدة بن الطبيب، د. يحيى الجبوري، دار التربية للنشر والتوزيع، بغداد، ط/ ١، ١٩٧١: ٢٨.

٢٤- الحصين بن الحمام المري الشاعر الفارس- سيرته وشعره، تحقيق: د. شريف علاونة، دار المناهج،

عمّان،ط/ ١، ٢٠٠٢:٨٠.

٢٥- ينظر: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة،ط/ ٧،١٩٨٩: ٧٥.

٢٦- طبقات فحول الشعراء،محمد بن سلام الجمحي، جمع وشرح: محمد محمود شاكر، دار المدني، جدة، د.ط، د.ت: ١٢٥.

٢٧- ينظر: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، د. يحيى الجبوري: ١٢١ - ٢٥٣.

٢٨- شعر عبد الله بن الزبعرى، د. يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/ ٢، ١٩٨١: ٤٢.

٢٩- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، ق/ ٢ (ج٣/ ٤)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط/ ٢،١٩٥٥: ١٣ -١٤.

٣٠- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، صححه: عادل مرشد، دار الإعلام، عمّان، ط/ ١، ٢٠٠٢: ٣٥٣.

٣١- ديوان العباس بن مرداس السلمي، تحقيق: د. يحيى الجبوري، دار الجمهورية، بغداد، ط/ ١، ١٩٦٨: ١٥-١٦.

٣٢- ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، دراسة وتبويب: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١، ١٩٩٣: ١٩.

٣٣- الثابت والمتحوّل - الأصول: ٦٧.

٣٤- المرجع نفسه: ٩١.

٣٥- تاريخ الشعر العربي حتى آخر

القرن الثالث الهجري، نجيب محمد البهبيتي: ١١٣.

٣٦- طبقات فحول الشعراء، ج/ ١: ٢٥.

٣٧- ينظر: مقدمة ابن خلدون، دار الشعب، القاهرة، ط/ ١، ١٩٥٠: ٥٨١.

٣٨- المرجع نفسه: ٥٨٢.

٣٩- صحيح سنن أبي داود، سلمان بن الأشعث السجستاني، محمد ناصر الدين الألباني، مج/ ٣، مكتبة المعارف، الرياض، ط/ ١٩٩٨،١: ٢٢٩.

٤٠- ينظر: الثابت والمتحول - الأصول: ٨٩-٩٠.

٤١- الأدب في موكب الحضارة الإسلامية- كتاب النثر، د. مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، ط/ ١٤١٤،١هـ: ٥٧.

٤٢- تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٣: ٢٢٢.

٤٣- الإسلام والشعر،د.سامي مكي العاني، عالم المعرفة، الكويت،د.ط، د.ت: ٢٧.

٤٤- ينظر: في الشعر الإسلامي والأموي، الدكتور عبد القادر القط، دار النهضة العربية، بيروت، ط/ ١٩٨٧،١: ١٢.

٤٥- تاريخ الأدب العربي- العصر الإسلامي، شوقي ضيف: ٤٦.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

١. الاختلاف والمغايرة، أزمة الهوية، أبو شعيب السماوري، مج رواية، مؤسسة سطور للثقافة، بغداد، ع: ٢، ت/ ١٤: ٢٠١٧، ٢.

٢. الأدب في موكب الحضارة الإسلامية- كتاب النثر، د. مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، ط/ ١، ١٤١٤هـ.

٣. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر القرطبي، تحقيق: علي معوض، عادل أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١، ٢٠١٠.

٤. الإسلام والشعر - دراسة موضوعية، د. إخلاص فخري عمارة، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ط، د.ت.

٥. الإسلام والشعر، د. فايز ترحيني، دار الفكر اللبناني، بيروت،ط/ ١، ١٩٩٠.

٦. الإسلام والشعر، د. سامي مكي العاني، عالم المعرفة، الكويت،د.ط، د.ت.

٧. الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ج/ ١٤، مطبعة دار الشعب، القاهرة، د.ط، ١٩٦٩

٨. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج/ ٦٨، منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، ط/ ١، ١٣٦٤ هـ.

٩. تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٣.

١٠. تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة،ط/ ١٩٨٩، ٧.

١١. تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، نجيب محمد البهبيتي، مطبعة دار الكتب القاهرة، د.ط، ١٩٥٠.

١٢. تفسير الكشّاف لأبي القاسم الزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، ج/ ٢، مكتبة العبيكان، الرياض، ط/ ١، ١٩٩٨.

١٣. الثابت والمتحول - بحث في الإبداع والاتباع عند العرب، أدونيس، ج/ ١ الأصول، دار الساقي، دمشق، ط/ ٧، ١٩٩٤.

١٤. الحصين بن الحمام المري الشاعر الفارس- سيرته وشعره، تحقيق: د. شريف علاونة، دار المناهج، عمّان،ط/ ١، ٢٠٠٢.

١٥. ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، دراسة وتبويب: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١، ١٩٩٣

١٦. ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره، د. وليد قصاب، دار العلوم، دمشق، ط/ ١، ١٩٨١.

١٧. ديوان العباس بن مرداس السلمي، تحقيق: د. يحيى الجبوري، دار الجمهورية، بغداد، ط/ ١، ١٩٦٨.

١٨. السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، ق/ ٢ (ج٣/ ٤)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط/ ٢،١٩٥٥

١٩. شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، يحيى الجبوري، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط/ ١، ١٩٦٤.

٢٠. شعر عبدة بن الطبيب، د. يحيى الجبوري، دار التربية للنشر والتوزيع، بغداد، ط/ ١، ١٩٧١.

٢١. شعر عبد الله بن الزبعرى، د. يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/ ٢، ١٩٨١ .

٢٢. صحيح سنن أبي داود، سلمان بن الأشعث السجستاني، محمد ناصر الدين الألباني، مج/ ٣، مكتبة المعارف، الرياض، ط/ ١،١٩٩٨ .

٢٣. طبقات فحول الشعراء،محمد بن سلام الجمحي، جمع وشرح: محمد محمود شاكر، دار المدني، جدة، د.ط، د.ت

٢٤. في الشعر الإسلامي والأموي، الدكتور عبد القادر القط، دار النهضة العربية، بيروت،ط/ ١،١٩٨٧ .

٢٥. في الشعر الإسلامي والأموي، د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية، بيروت،ط/ ١، ١٩٨٧.

٢٦. مدارات الحداثة، محمد سبيلا، الشركة العربية للأبحاث والنشر، بيروت،ط/ ١، ٢٠٠٩

٢٧. معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مطبعة دار القلم، بيروت، ط/ ١، ١٩٧٤ .

٢٨. المفضليات، المفضل الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط/ ٦، د.ت.

٢٩. مقدمة ابن خلدون، دار الشعب، القاهرة، ط/ ١، ١٩٥٠ .

٣٠. الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي، سعيدة بن بوزة، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط/ ١،٢٠١٦ .